وقفات في محاضرات الأدب الجاهلي للأستاذ الفاضل الدكتور رضوان محمد حسين النجار

د. عبد الناصر بوعلي

جامعة تلمسان

1- توطئة:

أن تكتب عن الأستاذ القدير الدكتور رضوان محمد حسين النجار بمناسبة مغادرته لمدرجات جامعة تلمسان، فكأنك تبحث في ذاكرة وخيال واسعين، وتحاور سنين طوال، وتبحر في زوارق وسفن جابت البحر من مدينة خليل الرحمن بفلسطين، مرورًا بالأزهر الشريف بقاهرة المعز الفاطمي، وصولا إلى تلمسان بني زيان مرقد الولي الصالح سيدي أبي مدين شعيب نفعنا الله ببركاته. وعندما تستعرض مسار الأستاذ الفاضل تشعر بأنك أمام عَلَمٍ صامدٍ وشامخ شموخ الأوراس في الجزائر المجاهدة، وأمام منارةٍ علمية أضاءت ما حولها بنور العلم والمعرفة.

إن آلاف الطلبة بالغرب الجزائري الطويل يحتفظ كلٌّ واحد منهم بذكرى خاصة من الأستاذ الدكتور رضوان النجار كما اعتادوا أن يختصروا اسمه الكريم، رجلٌ مفعم بالحيوية والنشاط والجدية والصرامة، دافع عن العربية دفاع الأبطال وناصر كل مرابط في ثغورها، ومجّد القيم الحضارية للأمة مشافهة وكتابة.

إن أستاذنا الأستاذ الدكتور رضوان محمد حسين النجار يرفض الاعتراف بالعجز ويرفض بقوّةٍ، الخمولَ والتهاونَ والكسلَ، وهو أسير شخصيته القوية الشّابة دوما التي تمتلك القدرة على المزاح وسرعة الرد وقوة البديهة، يجهر بردّه، ويجهر بضحكته، ظلّ يقاوم بما يملك من قوة مواطنَ الرداءة والتردي والهزيمة والتراجع، متمردا على العجز والخذلان والانسلاخ الحضاري، رافعا شعار الأصالة والوفاء للقيم الحضارية للأمة.

2- حياته:

ولمن لا يعرف الأستاذ رضوان محمد حسين النجار، فإن العديد من كتبه[1] تعرفه بالصورة والخط فهو: رضوان محمد حسين النجار

- ولد في مدينة الفالوجة الفلسطينية عام 1363هـ/ 1943م.
- اجتاز الثانوية العامة التوجيهي عام 1383هـ/ 1963م برابطة الجامعيين في مدينة خليل الرحمن بفلسطين.
- منح الإجازة العالية (الليسانس) في اللغة العربية وآدابها عام 1390هـ/ 1970م من الجامعة العربية في بيروت – لبنان.

● حصل على شهادة التّخصّص (الماجستير) بتقدير ممتاز من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر الشريف بالقاهرة عام 1398هـ/ 1978م.

● نال درجة العالمية (الدكتوراه) في الأدب والنقد بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى من كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية في القاهرة عام 1401هـ/ 1981م.

3- آثاره:

قام بخبرات علمية مع الإشراف والمناقشة لرسائل الماجستير وأطروحات دكتوراه الدولة ورئاسة لجانها العلمية في العديد من الجامعات: تلمسان، وهران، سيدي بلعباس، تيارت، مغنية، قسنطينة، والوكالة الوطنية للبحث العلمي الجامعي الجزائري.

وللمؤلف قرابة ثمانين بحثا ما بين مخطوط ومطبوع نذكر منها: المنظومة في العروض والقوافي والمصطلحات الموسومة ـــ الحس الجمالي في النقد الأدبي الاستحساني ـــ دراسات في الأدب الجاهلي وأدب صدر الإسلام - قضايا وظواهر - النّمير في بقيةٍ من شعر أبي بصير - المستدركات - حميد بن ثور الهلالي: حياته وشعره...

4- موضوع المداخلة:

عندما أزمعت المشاركة في **اليوم التكريمي الذي نظم لأستاذنا الدكتور رضوان النجار** تنوعت لديَّ مجالات الدراسة في مساره التعليمي والعلمي،

فعمدت إلى دفاتري التي كنت تتلمذت بها عليه، فلفت انتباهي محاضرته في لامية العرب للشنفرى، ودراسة في خداش بن زهير، وقد ملأت شروحاتها الأوراق فارتأيت أن أسجل وقفات فيها، إنها وقفات طالب يعترف لأستاذه بالفضل، ووقفات إجلال وتقدير لرجل شهمٍ، أعُدُّه أحد حماة اللغة العربية الأشاوس.

لقد أخذت عن أستاذي الأستاذ الدكتور محمد حسين النجار مادة الأدب الجاهلي في مرحلة التدرج، ودرست عليه البلاغة العربية في الماجستير، وبذلك كان حظي وافرا فقد عشت حديثه عن مواطن الجمال والاستحسان في الأدب العربي شعره ونثره.

إني لأذكر جيدًا سؤالا وجهَهُ إليَ الأستاذ: هل أعرف شيئا عن الشنفرى، ولقد أجبت عن هذا السؤال معتمدا آنذاك على ما أملك من ثقافة في شأن الشعراء الصعاليك، ومما راق الأستاذ في إجابتي قولي: الشنفرى شاعر فحل لم يفهمه قومه، لاقى التهميش والإقصاء والإبعاد فأتى بهذه اللامية التي تعد من عيون الشعر العربي. فانطلق أستاذنا النجار معقباً بفصاحته وصوته الجهوري قائلاً:

ولطلبتنا الحاضرينَ أقولُ: إن لامية العرب تلقب بنشيد الصحراء وهي من روائع الشعر العربي، ترجمت لعدة لغات عالمية، ولا أريد ان أقول فيها كلاما آخر فهي تعبّر عن نفسها، فإنها قادرة على ذلك بما تتوفر عليه من لغة راقية

ومعان كثيرة، يجد القارئ فيها الكثير من المصطلحات التي نجهل معناها لأن الزمان قد اختلف واختلفت مصطلحاته، وهي لشاعر عربي النسب بدوي الطبع عانى الإقصاء والتهميش في قبيلته التي حاولت قتل مشاعره وطمس رغباته، فهجرها وغيّر وجهته تماما، واتجه إلى نيل الشرف بذم أهله وتفضيل الحيوانات عليهم يقول (من الطويل):

أقـــيمـــوا بني أمي صدورَ مطـــيّكُم إني إلى قوم سواكـــم لأَميَلُ
فقد حمّت الحاجات واللّـــيل مُقْمرٌ وشـــدّت لطياتٍ مطايا وأَرحَلُ
وفي الأرض مَنأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلـــى متعزّلُ
ولدونكم أهلـــونَ سيدٌ عَمَلَّسٌ وأَرْقَطُ زهْلُولُ و عَرْفَاءُ جَيأَلُ
هُم الأهـــلُ لا مُستودع السّر ذائعٌ لديهم ولا الجاني بما جرَّ يَخْذَلُ[3]

وأما النموذج الثاني فهي قصيدة في الفخر والحماسة للشاعر خداش بن زهير بن ربيعة بن عمرو بن عامر بن صعصعة العامري، الشاعر والفارس المغوار، وهو من الشعراء المقلّين إلا أن شعره مفعم بالقوة والشدة، كان من أشراف بني عامر وشجعانهم يلقب (فارس الضَّحياء) يغلب على شعره الفخر والحماسة لقوله:

أبي فارس الـــضَّحيَاء يوم هُـــبَالة إذَا الخَيلُ في القَتلَى من القَوم تَعثَرُ

وهو القائل:

إنـــا لَنَعلَمُ أنـــا ما بقيت لنَا فينَا السَّمَاحُ و فينَا الجُودُ و الكَرَمُ

وحسبُنا من ثَناء المَادحينَ إذا أثنوا عَليكَ بـــأن يَثنُوا بما عَلمُوا[4]

و لعل في اختيار أستاذنا لمثل هذه القصائد ما يبرر حالته النفسية التواقة إلى الإباء والعفة وعلُوّ الهمة.

5- عرض طرائق الأستاذ في الشرح والتحليل:

- كان للأستاذ ذوق خاص في اختيار النصوص، وميلٌ معين يوحي بفطانة ونباهة كبيرتين لطبيعة التراث الأدبي الملائم لنفسيات وطموحات طلبته.

- كان الأستاذ ينظر إلى النص الأدبي نظرة شمولية فقد كان يُدخلُ في شرحه مكتسبات العلوم الأخرى التي تهتم بالاتصال الانساني من معرفة للأحكام الشرعية والفقهية، ومجالات التاريخ وعلم النفس والجغرافيا وأنساب العرب وغيرها.

- اشتغل أستاذنا على النصوص القديمة مسَاءلةً و استنطَاقًا و حفرًا و تنقيبًا وتفكيكًا، وكان يبحث دائمًا عن طالب يدرك المساحة الواسعة للنص، ولذلك كنا نلاحظ ثورته عندما يصطدم بتدني مستوى الطلاب، وقلة معارفهم في المادة.

- لم يكن الأستاذ يقدم النّص معزولا عن بيئته ومحيطه وزمانه بل يسبقه بتقديم يعرض فيه بيئة النص وصاحبه، وقد حدّث الطلاب عن بلاد العرب على عهد الشاعر الشنفرى فجاء بنظرة دقيقة عن نظام الحكم وعن الحالة الاجتماعية والثقافية للعرب آنذاك.

- قدم حياة الشاعر بطريقةٍ حلّل فيها أوضاعه النفسية والاجتماعية والثقافية، ومحيطه الفكري والسياسي.

- يركز الأستاذ كثيرا على فهم المقروء وقد ظهر ذلك في القراءات النموذجية التي كان يقدمها امام الطلبة بصوته الجوهري الجهوري وبفصاحته العالية آملا أن يُحدثَ القدوة لدى الطلاب، ثم يتوالى العديد من الطلبة على النص قراءة وشرحا، فكثيرا ما يوقف الطالب القارئ مسائلا أياه شرح البيت أو الشطر او الكلمة وفهم المنظوم والمنثور، كان مما يركز عليه العرب كثيرا فقد سئل أبو تمام لما تقول من الشعر ما لا يفهم؟ فأجاب لما لا تفهموا ما يقال[5]. فالفهم عملية يتعاون عليها طرفا العملية التربوية (الأستاذ والطالب).

- كان الأستاذ يتبع طريقة تربوية تجعل النص الأدبي ميدانا معرفيا مستقلا، أي مجالا لإنتاج معرفة تجعل الطالب يعيد النظر فيما كان يعرف عن النص المدروس والمعرفة عامة في آن واحد.

- إن منهج الأستاذ في التدريس يجعل النص الأدبي سلسلة من الترابطات والأدلة المركبة بعيدا عن الجزئية والسطحية والشخصانية.

- كان الأستاذ يتخذ النص الأدبي أرضية لتقديم معارف تخص المستويات اللغوية ومواطن الجمال في النص.

- أثناء الشرح والتحليل يربط الأستاذ الماضي بالحاضر عن طريق استحضار الأحداث ومقارنتها في محاولة منه لمدّ جسر التواصل بين الأجيال وبين القديم والحديث.

- اتخذ حياة الشنفرى نموذجا للحديث عن الآثار السلبية لمبدأ الاقصاء والتهميش الذي يتعرض له الفرد في مجتمعه، وبيّن عواقب هذا السلوك اللاحضاري، فقد قَتَلَ الشنفرى ما قتل من قبيلته ثم كان هو نفسه ضحية هذا الانتقام الجنوني.

- أعترفُ أن الأستاذ استخدم منهجية محكمة في الدراسة الأدبية أضاءت النص لدى الطالب ودفعته إلى شق طريق الفهم والإدراك والاستفادة، وربط المقروء بالواقع، لقد مزج بين معرفته الواسعة للمناهج العلمية والأدبية[5] وبين اطلاعه الواسع على النص الأدبي العربي القديم، فاجتهد في تطبيق تلك الآليات وتمكن في النهاية من إيصال المعرفة إلى طلابه، وقد ساعدته في ذلك جديته وحزمه وقوة شخصيته.

- وأسجل لأستاذي التفاتة فخر وثناء فقد كان الرجل شغوفا بتمجيد تراث الأمة، مهتما كثيرا بالتنقيب والبحث فيه، وكان حريصا على تثبيت هذه الميزة الطيبة في أذهان طلبته، مؤمنا بأن شقَّ طريق التقدم والتحضر لا يتم إلا على أرضية صلبة تنطلق منها الأمة، وكثيرا ما كان يصرح أن سبب الانحطاط الثقافي للأمة هو هذا الانسلاخ الحضاري، والتهافت على الوافد دون دراسة وتمحيص، وقد أكدت الأحداث التي تعيشها الأمة صدق هذا الطرح.

6- الخاتمـــــة:

وفي النهاية لا بد ان أقف عند محطات هامة في الحياة العلمية والثقافية لأستاذي القدير الدكتور رضوان محمد حسين النجار أذكر منها:

- للأستاذ إحاطة واسعة بطرائق تدريس الأدب العربي، يعرفها طلابه وهي مبثوثة في مقالاته ومؤلفاته المطبوعة والمخطوطة.
- يملك الأستاذ دراية عميقة لأداء وظيفته في الحياة.
- ينفرد الأستاذ بملكة تربوية في اختيار النص وتذوقه.
- إن الأستاذ رضوان محمد حسين النجار عالم ذواقة للنص الأدبي، غيور على التراث العربي مرتبط بالأصالة الحضارية للأمة.
- فصيح اللسان وبليغ الكلام، ينتج خطابا أدبيا راقيا، يؤمن بفاعلية العمل الممنهج في الفهم والاستيعاب، ويرى أن غياب المنهجية المحكمة لدراسة النص الأدبي لها علاقة مباشرة بفشل المشروع العربي النهضوي.

أستاذنا الكبير: طوبى لمن اتبع أثرك، فطلبتك وأعمالك الأدبية والفكرية سوف تبقى شاهدة على مرورك بهذه البلدة الطيبة، وسوف نبقى نحس بغربتك العزلاء، لأنك رسمت فوق جبين اللغة العربية إشارة، وأقمت في تلمسان صرحا أدبيا منيرا، وزرعت فكرا، ونشرت فصاحة، ونثرت نكتًا وتركت آثارا.

هوامش البحث:

1- رضوان محمد حسين النجار:

- دراسات في الأدب الجاهلي وأدب صدر الإسلام: قضايا وظواهر، مطبعة برصالي، تلمسان، الجزائر، 2009، الطبعة الثانية.
- الحسن الجمالي في النقد الدبي الاستحساني، مطبعة كنوز، تلمسان، 1431هـ ـ 2010م، الطبعة الأولى.
- المنظومة في العروض والقوافي، مطبعة كنوز، تلمسان، 1432هـ ـ 2011م، الطبعة الأولى.

2- الشنفرى، الديوان جمع وتحقيق وشرح الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، 1996، ص03.

3- جرجي زيدان، تاريخ الأدب العربي، موفم للنشر، الجزائر، 1993، 3/ 109.

4- للأستاذ المؤلّف مؤلف في علم المناهج، بعنوان: الألئ المنظومة في أمالي البحث و مناهجه المعلومة.

5- محاضرات الأستاذ رضوان محمد حسين النجار للعام الجامعي 1992/ 1993، السنة الأولى تدرج جامعة تلمسان في الأدب الجاهلي.

6- محاضرات الأستاذ للعام الجامعي 1998/ 1999 السداسي الأول (ماجستير نظري) في علم البلاغة، جامعة تلمسان.